الرّؤية الشِّعرية في الشّعر الشعبي الصّوفي عند فحول شعراء مدينة سيدي خالد – قراءة وتحليل-

أ. نورالدين مزروع
جامعة محمّد خيضر – بسكرة-
Nouraldinmazroua1987@gmail.com

تاريخ الإرسال:2019/11/12	تاريخ القبول:2019/11/23	تاريخ النشر: 2019/12/06

الملخص: تميزت بلديّة سيدي خالد -الواقعة غربا في منطقة بسكرة-، بطابع ديني خاص، لاسيما وهي تحمل ضريحاً مشهوراً للرجل الصالح " خالد بن سنان العبسي"، هذا الأمر الذي أنشأ تصوّفا واضحا في معتقد أئمتها وعلمائها، ثم انتقل ذلك إلى شعرائها، لتخلق بتجاربهم الصوفية رؤية شعرية خاصة فتتجسّد في لغتهم الشعرية الصوفية، وهذا ما عالجته هذه الورقة البحثية.

الكلمات المفتاحية: بسكرة، سيدي خالد، التصوف، اللغة الشعرية.

Abstract:
Sidi khaled country was marked ,in fact, the West in logic of Biskra has a special religious character, especially as it occupies a famous mausoleum of the righteous man Khaled Ben Sinane El-Absi, This created a clear mysticism in the belief of its imams and scholars, and then it was passed on to its poets, to create their own mystical experiences of poetic version renewed in the language of poetic Sufi, and this paper .
Keywords : Biskra- Sidi khaled-Myticism-Poetic language

تمهيد:

تعد التجربة الصوفية بأبعادها الروحية والفكرية واللغوية مصدراً خصبا من بين المصادر التراثية التي يرتكز عليها الشاعر العربي المعاصر، فقد وجد فيها ما يلي فصوله

وبحثه الدائم عن فضاءات جديدة، ما فتئ يجرّبها ويثري بها تجربته، مستأنسا بخياله الخلاّق ولغته الرمزية الإشارية القائمة على التخييل. ليتولّد للشاعر رؤية شعرية مصدرها التجربة وأساسها الخيال، والتخييل.

أولاّ: التصوف لغة واصطلاحا:

وردت لفظة الصوفية في العديد من المعاجم اللغوية؛ حيث مشتقة من الصوف الذي يغطي الظان وما أشبهه، فهي مأخوذة من الصوف الذي هو لباس العباد وأهل الصوامع[1]،وأغلب التعاريف اللغوية لكلمة الصوفية تصب في مجرى واحد؛ على أن الصوفية نسبة إلى الصوف الذي يلبسه الزهاد والنساك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلّم الذي يعدّ أوّل الزاهدين لله ، والمحبين للباس الصوف[2].

أمّا اصطلاحا: فقد عرّفه أحد الأدباء بأنه «تجريد العمل لله تعالى والزهد في الدنيا وترك دواعي الشهرة والميل إلى التواضع»[3]، أو هو «العكوف على العبادة والانقطاع عن العمل والاعراض عن زخرفة الدنيا وزينتها»[4].

والحق، أن التصوف قد تجلّى في بداية أمره متلبسا مع الزهد؛ إذ كان مقصور على الحياة الزهدية القائمة على الاعتزال والتأمل ثم أصبح رويد رويدا حركة منظمة ومدرسة يتخرّج فيها أربابها لها قواعدها وأعلامها. وقد اتخذ الصوفية أساسا لمذاهبهم في الحب الإلاهي وفناء المحب في حبيبه، لينقسم المتصوفة إلى قسمين: قسم سار على المنهج الإسلامي فكانت مبادئه التالية: التوبة والتطهر والعمل والتوكل وعدم الغرور، وقسم آخر انحرف بصوفيّته إلى دعوى إسقاط العمل والاستغراق بدعوى الوصول إلى الغفران، بالإضافة إلى ادّعاء معرفة الغيب والرؤيا الكشفية[5]، لتكون المعرفة الصوفية عندهم قائمة على القلب والكشف والمشاهدة، ومعتمدة على فكرة المحبّة الإلاهية، وما يتصل بهذه الفكرة من إنكار الذات، والخروج بذلك إلى البدع والخرافات[6].

وكلا الزهد والتصوف يدعوان إلى التقشف والقناعة ونبذ الحياة، وما فيها من لذة وجاه ومال، ولكنّهما يفترقان في أن الأول لا ينقطع صاحبه عن العمل بل يشارك في الحياة العامة، ويتكسّب ويجمع الأموال ويحرص عليها متى أمكنه، بينما التصوف يدعو إلى ترك العمل وتعطيل الهوى والانقطاع عن العبادة[7].

وقد ترددت أقوال المستشرقين في أصول تيار التصوف ونشأته، وأثبتوا على أن أصوله أجنبية فهو فكر دخيل على المسلمين، ولكن المتأمل لمسار هذا التيار يعلم أنّه عربي في

جوهره ونشأته ونموّه وتطوره؛ إذ هو قائم على المعرفة الصوفية التي تنزع نحو القلب وتعتمد على التجربة الحدسية[8].

وبهذا نستشف أنّ الزهد منهج إسلامي وهو حياة التقشف في المأكل والمشرب والملبس والخشية والورع، لتنشأ بعده موجة التصوف التي في حقيقتها فلسفة روحية عربية، كان منطلقها من الزهد، لكنّها تعمل على تصفية النفس بالمجاهدة والرياضة والانتقال من حال إلى حال حتى يصل الصوفي إلى المقام الذي يطلق عليه مقام الشهود أو الوجد أو الفناء[9].

ثانيا: مضامين الشعر الشعبي الصوفي في منطقة سيدي خالد:

تأثرت الثقافة الشعبية الجزائرية تأثرا بليغا بالحركة الصوفية التي شهدتها الجزائر في أوائل القرن الثاني للهجرة والتي كانت بدايتها عبارة عن زهد في الحياة الدنيوية ليتخذ الزهّاد وشيوخ الطرق الصوفية الثقافة الشعبية عموما والشعر الشعبي خصوصا وسيلة لنشر تعاليم خطابها الديني.

إنّ المتأمل الواعي في الخطاب الشعري الشعبي، لا سيما ذلك الذي يتصف بنزعة دينية، نلمس فيه لغة شعرية خاصة، وهذا ما سنسعى إليه في موضوعنا هذا، لاسيما مع الشعر الشعبي، وفي منطقة دينية، تحتضن ضريحا مشهوراً للرجل الصالح: "خالد بن سنان العبسي"، بالإضافة إلى ما تميّز واتصف به أصحاب هذه المنطقة من اعتقادات وأفكار دينية وتقليدية خاصة، ليجسّدوا ذلك في أشعارهم مستعينين بتجربتهم الصوفية، هذه الأخيرة التي بها خلقت للشاعر الصوفي رؤية شعرية في معرفة الأشياء والتعبير عنها، بمختلف ما يملك من قدرة فنّية.

اتسع مدار الشعر الشعبي الصوفي في منطقة-سيدي خالد-في الكثير من الموضوعات وأكثرها الشعر الديني الذي تتخلّله موضوعات شعرية لها علاقة كبيرة بالشعر الصوفي كذكر الاشتياق إلى الحج ومدح الرسول الكريم وصحابته وابنته فاطمة الزهراء وذكر زيارة أضرحة الأولياء وغير ذلك، ففي قصيدة صوفية بعنوان" الله لا لي مهارة"، يتفنّن الشاعر بن يوسف في قصيدته؛ إذ يتشوق إلى زيارة الكعبة وقبر الرسول صلّى الله عليه وسلّم؛ ذلك أنه لم يوفّق في حج بيت الله الحرام[10]، يقول[11]:

الله لا لـــــــــي مهـــــــــاره ♣ شطّـــــــار فـــــي قمـــــاره

عــــــنهم نديــــــر خطـــــرة ♣ لركـــــــــاب شاضــــــــفة

يا رب وفّق ونزور المصطفى

لالـــي خيـــول تهجـــم ♣ لخـــلا اللـــي يهمهـــم

نصـــفى لبيـــر زمـــزم ♣ ونـــــدور بالصفـــــا

يا رب وفّق ونزور المصطفى

بـــن يوســـف فيـــك يمـــدح ♣ بـــاغي البـــاب تفـــتح

قلـــّو ذنـــوب طايـــح ♣ نفســـــو مسارفـــــة

إنّ هذه المقطوعة المستلّة من قصيدة طويلة تطفو على سطحها بنية الحنين، والشوق إلى زيارة بيت الله الحرام، وزيارة قبر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، لكن الملفت للانتباه في هذه المقطوعة؛ حيث نلمس نزعة صوفية تسيطر على المقطوعة، فالشاعر استخدم عدّة أفعال وأسماء، وعبارات لها علاقة بتجربته الصوفية مثل قوله: (ندير خطرة، نزور، نصفى، باغي الباب، تفتح، ذنوب طايح، نفسو مسارفة)، وكل ذلك يدخل في المعجم اللّغوي الصوفي.

وإلى جانب هذه المعاني الدينية نلمس شيوع الخرافات والبدع في هذا الشعر، وقد شجّع على ذيوعها وانتشارها شيوخ الزوايا وأتباعهم من أهل البدع، فنجد بعض الشعراء يبالغون في مدح هؤلاء الشيوخ فيطلقون عليهم صفات الألوهية، فهذا بن يوسف ذاته، يتجاوز مبالغا في مدح خالد بن سنان العبسي، قوله(12):

يـــا خالـــد بـــن ســـنان ♣ أنـــت عمّـــارة لوطـــان

اطفـــي هـــاذ النيـــران ♣ ألـــي حاطـــت بيـــا

اطفـــي هـــاذ التنـــور ♣ منّـــو قلبـــي مضـــرور

يـــــا جبّـــــار المكســـــور ♣ يـــــا جبّـــــار المكســـــور

إن المتأمّل الواعي في مضامين هذه المقطوعة الشعرية، يلحظ أن الشاعر في مدحه قد بالغ في وصفه، حتّى أنّه خرج عن المألوف الديني، وعن عقيدته الشرعية، فقد جعل من الرجل الصالح خالد بن سنان، الضعيف الذي لا حول له ولا قوّة صفة القداسة والألوهية، فهو الذي يزيل كل الهموم والكروب ويكشف الضرّ لكل من يزوره، ويجبر كسر كل ضعيف، اعتقادا أنه قريب إلى الله، وكلّ ذلك مقبوح ومردود في دين الله عزّ وجل.

ثالثا: بنية القصيدة الشعبية الصوفية عند شعراء مدينة سيدي خالد:

تعدّ القصيدة الشعبية في عمومها تتداخل مع جنس آخر ألا وهو الرسالة، ويتجلى ذلك بوضوح في معظم القصائد، لاسيما تلك التي تتمحور موضوعاتها حول الشوق إلى الحبيب أو شيخ من شيوخ، أو حول التعبير عن الاحساس بالوحدة التي يعاني منها الشاعر، وهذا ما نلفيه في القصيدة الشعبية في منطقة سيدي خالد إذ نلفي بعض الخصائص الفنية لبنية القصيدة.

1/ الاستهلال الشعري:

يفتتح الشاعر قصيدته بالبسملة على الطريقة النثرية وهذا دليل على المرجعية الدينية لدى شعراء مدينة سيدي خالد، وقد تجلى هذا في شعرهم، فمثلا قول محمّد بن عزوز الخالدي(13):

بســم الله غنّيــت بكلامــي نبـــدا ♣ وألـــف صـــلاة علـــى أحمـــد شـــفيع القـــــــــــــــــوم

الآل والصحـاب ومـن بيـه اقتـدى ♣ تحيـــة بيـــها تفـــاجي كـــل اهمـــوم

يطالعنا الشاعر في بي قصيدته بالبسملة، كأنه يذكرنا بخطبة من خطب العصر الأموي، لكن ما ميّز هذه المقدّمة، ذلك الإيقاع الرنّان، الذي كلّما قرأه قارئ يلمس فيه متعة فنية وجرس موسيقي جميل، بالإضافة يعكس في الوقت ذاته نزعة دينية تسيطر من

البداية على القصيدة. وقد تأتي البسملة بطريقة أخرى بتوظيف مفردة أخرى مرادفة لاسمه عزّ وجل، كذكر مثلا كلمة معبود، يقول ابن عزوز الخالدي[14]:

باسمك يا معبود بابياتي ننظم ♣ نبدأ ذا الميزان راني جيت اهواه

ازكى صلاتي على زين الخاتم ♣ ماحي كل ذنوب من هو يرجاه

الآل ولصحاب يا غني عمّم ♣ واللي تابعيــن كل آخر بسمـاه

لم يكتف الشاعر في استهلاله بذكر الله عز وجل، بل قرن ذلك بالصلاة على النبي صلّى الله عليه وسلّم، ثم ردف ذلك آل البيت ثم أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، والتابعين من بعد الصحابة، ولعلّ ما زاد من جمال هذه المقدمّة وما ميزها عن القصائد الأخرى من الشعر الفصيح، ذلك التدقيق في ذكر الأشخاص، حين قال: في عجز البيت الثالث" والي تابعين كل آخر بسماه. فكأن الشاعر يملك في هذه المقدّمة حب وعاطفة قوية، ووفاء شديد لأولياء الله عز وجل.

2/هيكل القصيدة:

ومما لاريب فيه «أن ضعف الثقافة العربية في عصور الانحطاط وفي عصر الأتراك ثم في عهد الاحتلال الفرنسي ساعد على انتشار الشعر الشعبي الديني بمختلف موضوعاته فظهر شعراء متصوّفة أنشدوا قصائد ملحونة وموشحات وأزجالا في المديح النبوي ثمّ الإشادة في الدين»[15]. فهذا بن يوسف في قصيدة له ينشئها على شكل موشّحات، يقول[16]:

حــــــدثتك بالســــــان وزاد قياســــي ♣ هــاي نفســي بخـيط الــوهن مقيــدا

خــــوذي منّـــــي الفايـــــدة

وتفكــري غمــة القبــر فـي الارماســي ♣ تعيـــــاي فــــي الضــــيق راقــــدا

اخطــي لوعـــار والحجــر والمليصــي ♣ والويــــــــــــدان المزبــــــــــــدا

لا تمشــي فــي بحــور مــالهم ســاسـي ♣ وقــــــــلّات كبـــــــــار راكـــــــــدا

خـــــوذي منّـــــي الفايــــدة

وهكذا، شاعت الأزجال والموشحات الدينية منذ العصور القديمة، ولابد كان أثرها في الشعر الملحون، وذلك أثناء حكم الأتراك بالجزائر فانتشرت القصائد الدينية من مديح وتوسل وتقرّب إلى الله وابتهال وذكر الأولياء الصالحين، ووصف الخمرة وما إليها[17].

رابعا: تجلّيات اللغة الصوفية عند شعراء مدينة سيدي خالد:

من المعروف «أن الشعر ظاهرة لغوية في وجودها، ولا سبيل إلى التأتي إليها إلاّ من جهة اللّغة التي تتمثل بها عبقرية الإنسان وتقوم بها ماهية الشعر»[18]، فالشعر باعتباره فنٌّ أداته الكلمة ، وجوهره الكامل وسرّه الفني متمكّن في اللّغة، ابتداء من الصوت، ومرورا بالمفردة وانتهاء بالتركيب[19].وإذا تمعنا في لغة الشاعر الشعبي، لا سيما الصوفية منها، نلحظ أنّه لغة يغلبها طابع ديني قوي، فالشاعر يحاول في كلماته التوسل إلى ربّه ومدح رسوله وأوليائه الصالحين.

إن أوّل ما يثير انتباه القارئ الذي يتمعن في اللغة الشعرية المستخدمة عند شعراء مدينة سيدي خالد، نلفي أنه يوجد الكثير من الشعراء من كان مشغوفا باستخدام مفردات من المعجم العربي القديم.

أ/ المعجم اللغوي القديم ودوره في ترقية القصيدة الشعبية الصوفية:

ولمّا كان لكل خطاب معجمه الخاص به، إذ الشعر الغزلي معجمه، والمدحي معجمه، والحكمي معجمه، والأمر ذاته في الخطاب الصوفي، حيث يسعى الشاعر الصوفي في أشعاره، بعقائده وأفكاره الحدسية، ثم بلغته الشعرية أن يصل إلى المحبّة الإلهية والفناء في الذات الإلهية، فكذلك الشعراء الشعبيون الصوفيون؛ إذ نشأوا في ظل الزوايا والمساجد، فتشبّعت أذهانهم كل ما يملي عليهم أساتذتهم من فكرهم الواسع ومذاهبهم المختلفة، لتنشأ لهم رغبة في التقرب إلى الله عز وجل، والتوسل إليه بمختلف طرقهم البدعية.

ولعلّ هذا ما سنسعى إليه في بحثنا هذا مع شعراء مميزين عاشوا في مدينة تاريخية دينية، تحتضن رجلا صالحا، "خالد بن سنان العبسي"، رويت عليه أخبار كثيرة على أنه

نبي، مسلّطين الضوء على اللغة الشعرية الصوفية عند شعراء مدينة سيدي خالد وما تحمله من رموز صوفية تكاد تتجاوز بها المألوف الحسي والديني.

إنّ أول ما نلحظه في اللغة المستخدمة من طرف شعراء مدينة سيدي خالد، التي لا تختلف كثيرا عن القسم الأوّل، أو بالأحرى عن لغة الأم في ألفاظها وصيغها، نستثني من ذلك ألفاظا قليلة، سقطت منها بعض الحروف، وإذن فإن الخلاف اللغة ينحصر في تطبيق قواعد اللغة أو بعبارة أخرى في تأخير أواخر الكلمات وإهمال التنوين إهمالا تاما تحقيقا للنطق، وسنرى من خلال الأمثلة التي أعرضها الآن أن الشاعر ميدانا فسيحا لإدخاله تلك العبارات الجاهزة الشائعة في المدائح الدينية، وللشيخ السماتي قصيدة طويلة يبدؤها بقوله[20]:

أوّل بــــــادي هـــــذا النظـــــامْ ♣ بــــأزكَى الصـــلَاة والســـلامْ

علَـــــى طــــهَ خيــــرِ الأنــــام ♣ شَفيـــــــعِ الخَالِقِيَّـــــــــا

ومن الشعراء الذين نلمس لهم لغة راقية لا تخرج عن المعجم العربي القديم " ابن يوسف"؛ إذ نلحظ أنّه يعمد في كثير من الأحيان إلى استعمال كلمات مهجورة بقصد إحيائها، والمحافظة على المعجم العربي القديم، ومن ثمّ دفع قارئيه على البحث والاستقراء[21]،فمثلا في بعض قصائده الصوفية وهو يمدح النبي خاد بن سنان العبسي[22]:

نبـــيّ مــــن أهــــل الفتـــرة ♣ رســــول ضيّعـــوه أصحابــــه

عمــــرت بيــــه هــــذي الصـــحرا ♣ معتــــوق مــــن سَـــكَن ترابــــو

كاد ابن يوسف أن يصل ببراعته الشعرية وثقافته الجيّدة باللغة العربية إلى مستوى الشعر الفصيح؛ فهو أحيانا يستخدم ألفاظا وكلمات غريبة أصولها من المعجم العربي القديم، لاسيما قصائده الصوفية، حيث نجد يستعمل مفردات دينية بلغة راقية، فمثلا في قصيدة السالفة بعنوان: "هاي نفسي" يخاطب بها الدنيا يقول:[23]

قوللهـا يـا نفسـي بركايـك وابكي دخلانـي ♣ والمتحـــذّر راه يــــونّي قبــــل الســــيل

ديــري ســد متيــن لا تــوحزك لمــزان ♣ بنــي الزهــد يجرحــو قطــر الوبيــل

وظّف الشاعر ألفاظا صريحة من المعجم العربي القديم مثل: (يونّي) من النؤي[24]،وألفاظا أخرى مثل: (متين، قطر، الوبيل)، كلّها كلمات فصيحة راقية تدخل في مجال اللغة الفصيحة الراقية.

ب/ التناص:

من الظواهر المعروفة والمبادئ البديهية في الكتابة الشعرية والأدبية أنَّ الكاتب المبدع، شاعرا كان أم ناثرا، لا يستقل بلغة معجمها من وضعه ولا بأسلوب كل خصائصه من عنده، ولا بفكر هو منشِئُهُ من العدم، وشعور هو أول مكابده والمتفرد بنبضه، تلك بديهة معروفة منذ القدم، فهي ليست محل جدل حيث أن النصوص الأدبية تتقاطع لغة وأسلوبا وشعورا وفكرا، بقصد من أصحابها ووعي أو بغير قصد ولا وعي، وهذه العملية الأدبية تسمى بظاهرة التناص[25]. وعليه، فالتناص مصطلح نقدي حديث، يتمثل في تعالق النصوص ببعضها بعض، «كما يبرهن على ذلك اشتقاق المصطلح نفسه، هو تبادل التأثير والعلاقات بين نص أدبي راهن ونصوص أدبية أُخرَ سابقة»[26].

وإذا ولّينا وجوهنا إلى التناص الديني نجد هذا الأخير يعدُّ عند الكثير من الشعراء مصدراً مركزياً عندهم، يستمدّون منه كثيرا من الموضوعات والشخوص والرموز، والمواقف، والرؤى التي تشكل محورا مهما لأعمالهم الأدبية، التي يعبّرون من خلالها عن أفكارهم وقضاياهم وهمومهم وطموحاتهم، وتجاربهم الخاصة[27]، ولعلّ أهم مصدر موروث ديني يستند إليه الشاعرُ الشعبي الصوفي في تقوية معاني شعره هو " القرآن الكريم"، وهذا ما هو مجسّد بوضوح عند شعراء مدينة سيدي خالد، فإضافة إلى حديثنا عن ملكة ابن يوسف الشعرية، وتمكنه في استخدام ألفاظ من المعجم العربي القديم، يفاجئنا الشاعر في قصائد أخرى باقتباسه من القرآن الكريم، يقول [28]:

قـــــد الذّاريـــــــات تـــــــذري ♣ قـــــد حـــــــاملات الـــــــوقر

قـــــد جاريـــــــات البحـــــــر ♣ ومـــــا ســـــارت عـــــن ظهريـــــه

قـــــد الشّـــــمس وضـــــحاها ♣ والقمـــــــــر إذا تلاهـــــــــا

ونجـــــــوم تلالـــــــي ســــــــماها ♣ قـــــــد الليـــــــل وظلاميـــــــه

فابن يوسف في هذه المقطوعة الشعرية يستعمل كلمات وصيغ قرآنية جاهزة. ففي البيت الأوّل يتناص مع القرآن الكريم، في قوله تعالى: «**وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا، فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا**» [الذاريات الآية 1و2] والأمر ذاته في البيت الثالث، يتناص مع قوله تعالى: «**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا**» [الشمس الآية 1و2]. وهذا ما أوحى نزعة الشاعر الدينية القويّة، وتأثر الشديد بالقرآن الكريم، كل ذلك ما ساعده في تقوية معاني قصيدته.

وهكذا فقد استنطق شعراء مدينة سيدي خالد المفردة اللغوية العربية وأعطوها مساحة دلالية وسيميائية لا تنضب، وكسوها بالبعد الديني والعرفاني، وخلخلوا معناها المعجمي وركّبوا في سياق مجمل منساق مع التعبير القرآني، بحيث استقرأوا الحرف العربي بما يخدم تصورهم وواقعهم.

ج/ الرمز:

يطالعنا الشعر العربي المعاصر بثورة هائلة من التمرّد الأدبي على الذهنية التقليدية للشعراء القدامى، محاولا الولوج إلى عوالم جديدة في الشعر العربي من خلال انفتاحه اللاّ محدود على الوجود اللغوي القائم على الاستعارة والمجاز، واستخدام أنساقا فنّية أخرى كالحذف والتقديم والرمز، ...واخضاع ذلك كلّه إلى الرؤية الجديدة للشعر العربي المعاصر(29).

والأمر ذاته في الشعر الصوفي الشعبي؛ إذ استخدم موضوعات وألفاظ ومفردات خاصة تكشف لنا عن خاصية بارزة له هي الرمزية؛ حيث يعبر الشاعر في بعض الأحيان عن حسّه ومشاعره ومعانته، متوسّلا ربّه، أو نبيّه أو أوليائه الصالحين؛ كل ذلك ليتجاوز بها إلى الذات الالاهية فيخلق بذلك اتصال روحاني بينه وبين الله عزّوجل. يقول بن يوسف(30):

يــــــا ذا الركبـــــــة مابيـــــــك ♣ هـــــاذي دعـــــوة طالـــــت بيـــــك

نطلـــــــب ربّـــــي يشـــــــفيك ♣ العـــــــــــالي مولايـــــــــــــا

يــــــا عـــــــالم يـــــا غفّـــــار ♣ اغفـــــر واكشـــــف لضـــــرار

نطلـــــــب منــــــك الغفــــــران ♣ تســـــــــــتجب لـــــــــــــدعايا

يصوّر الشاعر "بن يوسف" الشاعر وسط حالة من التذلّل لله تعالى، والتوسل إليه سبحانه وتعالى، ففي ورعٍ وزهد، يخاطب الشاعر نفسه ذاكرا ضرّه معلنا شكواه، متوسّلا إلى ربّه أن يكشف ضرّه ومأساته. لكنّه سرعان ما يخرج عن المألوف الديني بتوسّله إلى أشياء ليس لها أصل في الدين، بخاصية رمزية، فقوله[31]:

نتوسّـــــــــــل بالأســـــــــياد ♣ وللســـــــــــاكن بغـــــــــداد

بـــــــــن خليفـــــــــة الوكّـــــــاد ♣ لا مـــــــــــــن دار عليّـــــــــــــا

استند الشاعر في هذا البيت بمعجم البلدان، ليوظّف كلمة بغداد (عاصمة العراق)، التي تعد رمزاً صوفيا، حين ردف لها كلمة (ساكن)، وهي إشارة إلى العراقة والأصالة لهذا البلد، وما كان يقطن فيه من أولياء صالحين. ثم يواصل الشاعر في القصيدة ذاتها توسله ومناجاته، بشيوخ الصوفيا، قوله[32]:

يـــــــا قرّانـــــــي مشـــــــغول ♣ معـــــــروف الكرخــــــي يقـــــول

بالعبـــــــــــاس المقبـــــــــول ♣ ســـــــــــاداتي الصوفيـــــــــــا

عبـــــــــد القـــــــــادر ارواح ♣ راه خديمــــــــــــك بــــــــــرّاح

خيـــــــرآ قطـــــــب الصــــــلّاح ♣ يـــــــا رايــــــــس لوليــــــــا

خيـــــــرآ قطـــــــب الصــــــلّاح ♣ راهــــــم نفــــــذو لجــــــراح

غيــــــث اللــــي ســــرو بــــاح ♣ يـــــا شـــــيخ التربيـــــــة

والمستقطب للانتباه، أن الشاعر قد صرّح بصوفيته، فتوسّل بخطابه الصوفي المباشر إلى شيوخ الصوفية، حيث وظّفهم بحسب رتبتهم الدينية العالية؛ وذلك باستخدام الرمز الصوفي الخاص لهم: (سادتي الصوفية، رايس لوليا، شيخ التربية)، كل ذلك ليتجاوز بها الشاعر إلى الذات الإلاهية، فرضا الشيخ والولي، وكل السادة الصوفية عنده، يعني رضا الله عز وجل، ولا يبرح الشاعر في خطابه الصوفي حيث يتطرّق إلى أمر خطير، حين يتوسل بكراماتهم الخارقة عن العادة، يقول[33]:

نتوسّـــــــل بالســـــــادات ♣ الرّاســـــــخين الأقنـــــــات

الخـــــــارقين العـــــــادات ♣ نرجـــــاكم فـــــي ذيّـــــا

وقوله[34]:

نتوسّـــــل بأهـــــل البيـــــر ♣ معونـــــة يـــــا خبيـــــر

بــــدّل مـــا هـــو عســـير ♣ باليســـــر يـــــا مولايـــــا

تجاوز الشاعر بتوسّله في البيتين الأخيرين إلى كل غير مألوف؛ حيث توسّل بالجن الصالحين، في قوله: (أهل البير)، وهو رمز شعبي يقصد به الجن، معتقدا أنهم سبب في جلب كل خير، وهذا من الأمور الغير شرعية في الدين الاسلامي. وقد يتوجّه الشاعر بتوسله مباشرة مع ربّه، يقول[35]:

باســـــمك يـــــا جبّـــــار ♣ عالـــــــم لســـــــرار

صـــــلّي علـــــى المختـــــار ♣ صـــــــلاة بالتحيّـــــــة

الله يـــــا لطيـــــــف ♣ بيـــــــك التصريـــــــف

اتنـــــــور الشـــــريف ♣ يـــــا عـــــالم الخفيّـــــة

باســـــــمك يـــــا رحــــــيم ♣ حـــــــــــيٌّ قديـــــــــــم

وبـــــــــالعرش العظـــــــــيم ♣ وجبريــــــــــل والأنبيـــــــــا

استعمل الشاعر عدّة ألفاظ ومفردات يخاطب بها ربّه مثل:(الجبّار، عالم لسرار، لطيف، عالم الخفية، رحيم، حيٌّ، قديم)، كل هذه الألفاظ، تدخل في مجال الثناء الروحاني اتجاه الله عزّ وجل، كي يزيد تقرّبا إليه، ولكن سرعان ما ينتقل بتوسله إلى خالد بن سنان في قوله(36):

هـــــو النبــي بــــن سنـــــان ♣ وحنـــا الساكنيـــــن اجـــــوارو

واللــــي قريـــب فــــي الاوطـــــاني ♣ مســــافرين تحـــــت استــــــارو

منســـــوب ليــــه والسكـــانــــــي ♣ والقاصديـــــــن فــــــي تحـــــرارو

صحــــــرا وتـــــل والعربـــــاني ♣ والخيـــر نــــال مــــن جـــــازارو

وهكذا، فإن الكلمات الصوفية التي اعتمدها شعراء مدينة سيدي خالد، والتي جاءت على شكل رموز تعكس خلاصة الحياة الثرية الواسعة التي حضي بها شعراء المنطقة، وعكست في الوقت ذاته عمق التجربة الكبيرة التي جبلت عليها نفس الشاعر، فهذه الرموز الصوفية تناسب نمط ثقافتهم وتجاربهم، بل ترجمة عامة لعالم حياتهم الروحية.

وأخيرا فإنّا لا نبالغ إذا قلنا أن شعراء مدينة سيدي خالد قد وفقوا إلى حد بعيد في التعبير عن تجاربهم الصوفية، برؤيتهم الشعرية الخاصة، وإن كانوا قد تجاوزوا في بعض الأحيان في الخروج عن المألوف الديني، والعقيدة الاسلامية الصحيحة.

هوامش المقال:

---

(1) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة(صوف)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (ط2)، 1992م، ج2، ص 919.

(2) ينظر: عبد المنعم الحنفي، الموسوعة الصوفية، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، (ط1)، 2003م، ص 839.

(3) صابر طعيمة، الصوفية مفتقدا ومسلكا، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، الرياض، (ط2)، ص 90.

(4) سعد بوفلاقة، في سيماء الشعر العربي القديم ودراسات اخرى، اتحاد الكتاب الجزائريين، ديدوش مراد، الجزائر، (ط1)، 2004م، ص 209.

(5) ينظر: عبد الستار السيد متولي، أدب الزهد في العصر العباسي نشأته وتطوره وأشهر رجاله، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الآداب اشراف إبراهيم أبو الخشب، جامعة أم القرى مكة المكرمة، 1972م، ص

(6) ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، دار المعارف، مصر، (ط6)، 1966م، ص:476.

(7) ينظر: عبد الستار السيد متولي، أدب الزهد في العصر العباسي نشأته وتطوره وأشهر رجاله، ص:267.

(8) ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ص: 106، 107.

(9) ينظر: عبد الستار السيد متولي، أدب الزهد في العصر العباسي نشأته وتطوره وأشهر رجاله، ص:268.

(10) ينظر: أحمد أمين، من فحول الشعراء في سيدي خالد بسكرة، دار السبيل، الجزائر، (د ط)، 2008م، ص: 66.

(11) المرجع نفسه، ص: 84.

(12) أحمد أمين، من فحول الشعراء في سيدي خالد بسكرة، ص: 110، 111.

(13) أحمد أمين، من فحول الشعراء في سيدي خالد بسكرة، ص: 139.

(14) المرجع نفسه، ص: 152.

(15) عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (ط1)، 1981م، ص: 366.

(16) أحمد أمين، من فحول الشعراء في سيدي خالد بسكرة، ص: 101.

(17) ينظر: عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ص: 367.

(18) لطفي عبد البديع، التركيب اللغوي للأدب، دار المريخ للنشر، الرياض، سعودية، (دط)، 1989،ص: 08

(19) ينظر: محمد عبدو فلفل، في التشكيل اللغوي للشعر، مقاربات في النظرية والتطبيق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، سوريا، (دط)، 2013م، ص: 13.

(20) أحمد أمين، من فحول الشعراء في سيدي خالد بسكرة، ص: 49.

(21) المرجع نفسه، ص:67.

(22) المرجع نفسه، ص: 82.

(23) المرجع نفسه، ص: 49.

(24) النؤي: مجرى يحفر حول الخيمة أو الخباء يقيها السيل، ج نؤي من الفعل نأى. ينظر: إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، القاهرة، مصر، 1960م، 953.

(25) ينظر: عبد المالك بومنجل، تجربة نقد الشعر عند عبد المالك مرتاض، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2015، ص: 102.

(26) عبد المالك مرتاض، نظرية النص الأدبي، دار هومة، الجزائر، ط 3، 2015، ص 260.

(27) ينظر: مصباح أحمد صادق، التناص في شعر أبي الطيب المتنبي، المجلة الليبية العالمية، جامعة بنغازي، ليبيا، العدد السادس، مارس 2016م، ص:08.

(28) أحمد أمين، من فحول الشعراء في سيدي خالد بسكرة، ص:70

(29) ينظر: طالب المعمري، الخطاب الصوفي في الشعر العربي المعاصر، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2010م، ص: 71.

(30) أحمد أمين، من فحول الشعراء سيدي خالد بسكرة، ص: 110.

(31) أحمد أمين، من فحول الشعراء سيدي خالد بسكرة، ص: 111.

(32) المرجع نفسه، ص: 113.

(33) أحمد أمين، من فحول الشعراء سيدي خالد بسكرة، ص: 114.

(34) المرجع نفسه، ص:114.

(35) المرجع نفسه، ص: 166-174.

(36) أحمد أمين، من فحول الشعراء في سيدي خالد بسكرة، ص: 164.